اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب



ابن خلدون
يقابل
دوركهايم
فى علم الاجتماع



تأليف : عبد التواب يوسف

رسوم : فريدة عويس

الدار المصرية اللبنانية

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٤٦٧٩ /١٩٩٦
الترقيم الدولى: 6- 260 - 270 - 977
فصل ألوان: **عربية للطباعة والنشر**
العنوان: ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون: ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨
طبع: **آمون**
العنوان: ٤ فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧

الطبعة الأولى: صفر ١٤١٧ هـ ـ يوليو ١٩٩٦ م
الطبعة الثانية : محرم ١٤٢٠ هـ ـ إبريل ١٩٩٩ م.

اللقاء الفريد
بين
علماء العرب
و
علماء الغرب

ابن خلدون
يقابل
دوركهايم

فى علم الاجتماع



تاليف : عبد التواب يوسف
رسوم : فريدة عويس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

كانت المكتبة العامة ، تقف عالية شامخة ، ومن أمامها ميدان فسيح ، يلفها الليل والهدوء ، ومن بطون كتبها خرج المؤلفون فى سكون ، وراحوا يعملون بجدٍّ ونشاط ، يلتقون ويتفرقون ويَقْرَءُون ، وأحياناً يتجمعون ويتحدثون ، ويتناقشون فى صوت وديع خفيض ، غير أنهم فى بعض الأحيان عندما يختلفون نجدهم يتكلمون فى شيء من الحماسة ، ثم ينصرف كل منهم إلى حال سبيله ، ويأتى بالمراجع والمجلدات والكتب .. إنه يريد أن يعرف تأثيره فيمن أَتَوْا بعده .. مَنْ منهم وافقه على أفكاره ؟ مَنْ منهم اختلف معه فى آرائه ؟ كانوا يفعلون كل ذلك على ضوء خافت ، أقرب إلى الشموع منه إلى المصابيح ، فما كانوا يرغبون فى إثارة أهل المدينة وحب الاستطلاع لديهم إذا هم لمحوا أضواء نوافذ المكتبة .



كانوا يتنقلون فى خِفَّة ولُطف ، ويتبادلون التحيه أحياناً ، وفى أحيان أخرى يشيح الواحد منهم بوجهه ، عن هذا الذى اختلف معه ، أو هاجمه ، أو قلل من قيمة ما عمل وما بذل من جهد لكى يقدم للناس عصارة فكره .. ووسط هذا ، وأثناء انشغال الجميع فى تجميع المعلومات والمعارف ، دخل رجل وقور ، يخطو فى ثقة وتُؤَدَةٍ ، وعلى وجهه ظلال ابتسامة حلوة طيبة .. يبدو أن هذه كانت أول مرة يأتى فيها إلى هذه المكتبة بالذات ، وكان عالم الاجتماع « دوركايم » هو أول من لمح القادم الجديد ، وقف يُحدق فيه كأنه لا يصدق عينيه .. نعم ، هو لم يَرَهُ من قبل ، إذ تفصله عنه مئات من السنين ، لكن من كثرة ما قرأ له ، أصبح يستطيع أن يتصور شكله ،



وهيئته ، ويمكن أن يخمن شخصيته .. لذلك سارع يستقبله ، فَارِدًا ذراعيه ليحتضنه ، والوافد يعدل من ثيابه وعمامته من فوق رأسه ، ويتقبل التحية بِرِضًا وارتياح ، وإن كان يشعر بشىء من الدهشة .

– أهلًا أهلًا ، ومرحباً بالعالم الجليل عبد الرحمٰن بن خلدون .

– أهلا بك .

– الليلة ، علماء كثيرون من كل أقطار الأرض ينتظرون قدومك عليهم .. علماء فى السياسة ، وفى الاقتصاد ، وفى التاريخ ، بجانب حشد كبير من « علماء الاجتماع » بالذات ، جاءوا من كل أَرجاء الدنيا ليحتفلوا بك .. لأنك « أبو علم الاجتماع » .



كان كثيرون يتحركون - أشباحاً - داخل المكتبة الكبيرة ، كُلٌّ منهم مشغول بالتحضير لهذا اللقاء الفريد ، لم يفطنوا لقدومه فى البداية ، خاصة أن كُلًّا منهم كان فى قاعة غير الأخرى .. اصطحب « دوركايم » ضيفه الكبير ليريه فى البداية قاعات المكتبة الكبرى .. وكانت البداية قاعة الكتب السياسية .. وإذا بكتاب من عدة مجلدات يتصدر الرفوف .. المجلد الأول منها بلون يختلف عن بقية إخوته .. عنوان الكتاب كان مكتوباً على هيئة هرم ، كأنما يريدون أن يقولوا إنهم أمام « هرم » فى العلم والمعرفة .. كان العنوان :



كتاب العِبَر
وديوان المبتدأ والخَبَر
فى أيام العَرَب والعَجَم والبَرْبَر
ومَنْ عاصَرَهُم مِنْ ذَوِى السلطان الأكبر

ابتسم ابن خلدون ..

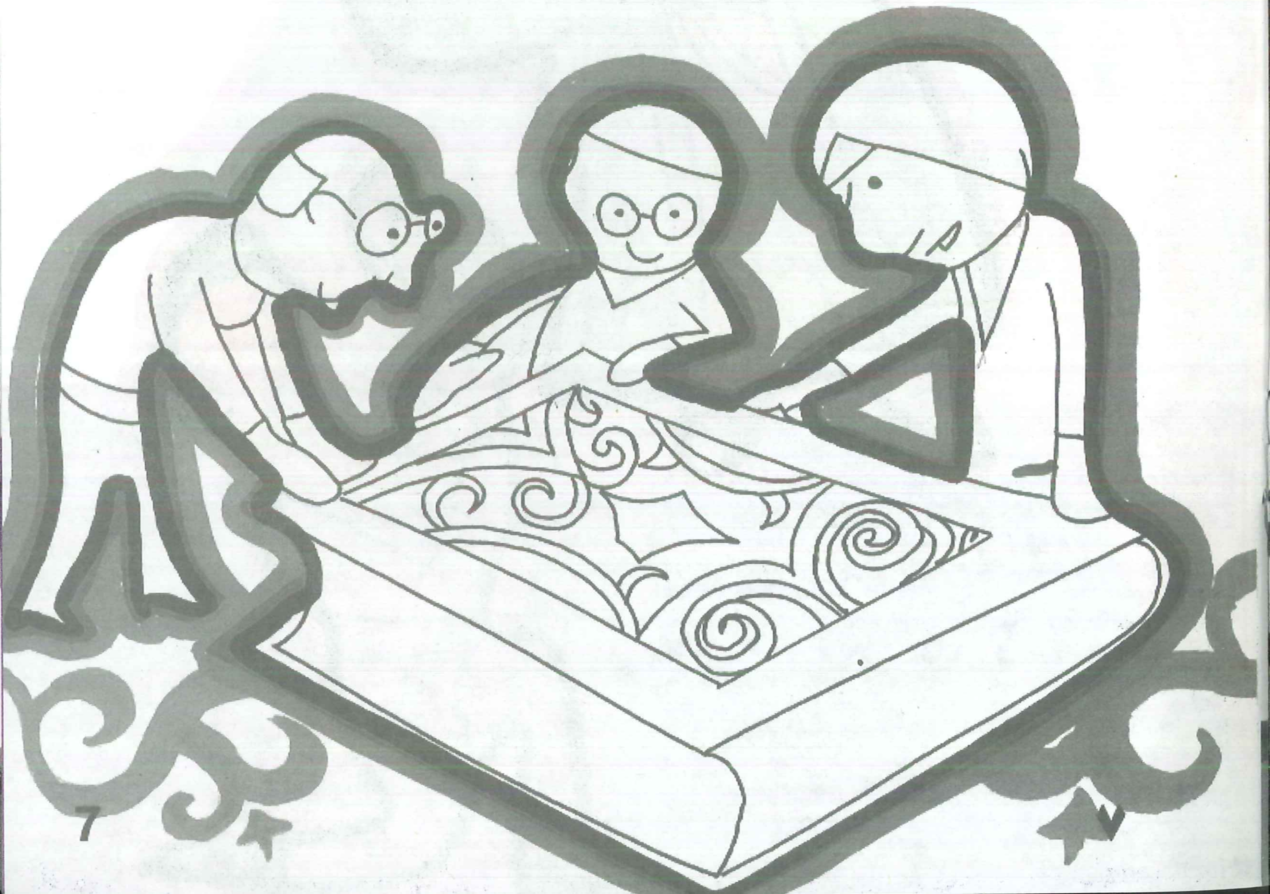
وكانت هناك كتب كثيرة فى هذه القاعة ، منها كتاب (الأمير) للإيطالى « ميكيافلى » و ... و ...

واصطحب « دوركايم » ضيفه ابن خلدون إلى قاعة « التاريخ » ، وإذا به يجد كتابه أيضاً فى صدر المكان ، ويبدو أن ذلك أدخل السرور على نفسه ، خاصة أن هناك مئات من كتب التاريخ على الرفوف ، لكن الحفاوة بكتابه كانت أكبر وأوضح .

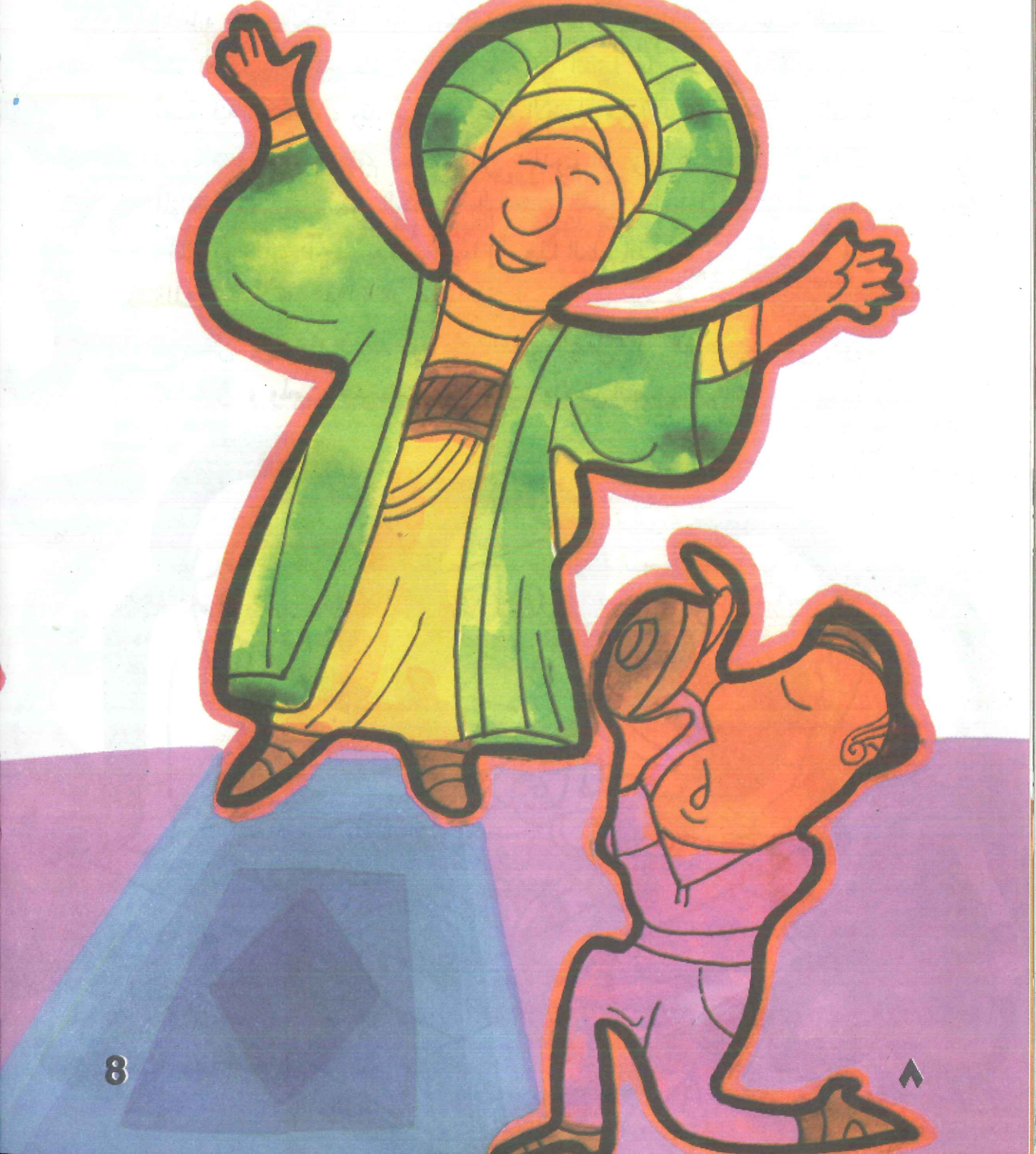


ومضى الاثنان معاً إلى قاعة « الفلسفة » ، ومرة أخرى كان كتاب ابن خلدون فى المقدمة .. و « المقدمة » - أى : مقدمة ابن خلدون - تتصدر كل الكتب .

وعندما وصلا إلى قاعة علم « الاجتماع » و « العمران » كان فى انتظاره نفس الكتاب ، وكان مجلدًا تجليدًا فاخرًا ، وقد كُتِبَ عليه العنوان بماء الذهب .. واصطف علماء من كل الدنيا على جانبى المكان الذى وُضِعَ فيه الكتاب ، وقد سُلطت عليه الأضواء من كشافات جعلت القاعة تبدو شبه مظلمة ، ولم يستطع ابن خلدون أن يرى عشرات ، بل مئات المؤلفين والدارسين من الكُتَّاب والباحثين الذين جاءوا ليستقبلوا أستاذهم الجليل ، والذى أخذ بيدهم جميعًا إلى هذا العلم الذى لم يكن له وجود قبل ذلك ، وما كان عالمنا قد عرفه قبل أن يكتب عنه وفيه عالمنا الكبير عبد الرحمٰن بن خلدون .. وما إن دلف الرجل إلى القاعة ، حتى دوَّى التصفيق ، ولمعت عدسات الكاميرات وآلات التصوير .



إنها مناسبة عظيمة يحتفل فيها علماء الاجتماع فى العالم ، بالعالم العربى الكبير « عبد الرحمن بن خلدون » الذى أجلسوه وحده على مِنَصَّتِهِ ، وجلسوا كتلاميذ ينصتون إليه .



سكت الجميع ، وسَكَنُوا ، وأصبحوا كما قال العرب القدامى : كَأَنَّ على رُءُوسهم الطير .. كانوا يتطلعون فى إمعان إلى طَلْعَةِ الرجل .. ينظرون .. يتملون .. يحدقون .. كأنما فى استطاعتهم أن يروا العبقرية بادية وظاهرة عليه وعلى ملامحه .. وبدأ حديثه بدون أن يقدمه أحد .. إن ابن خلدون لا يحتاج إلى مَنْ يقدمه .. لقد قدمته « المقدمة » العظيمة لكتابه الرائع « كتاب العِبَر » .. قال :

« لا أظن أننى سأضيف كثيرًا إلى ما عرفتموه عنى ، وما قرأتموه لى .. بل أظنكم تدركون أنكم قد تجاوزتمونى بكثير ، وأضفتم إلى ما قَدَّمْتُ إضافات رائعة ، وأنتم تتحدثون عن العمران والمدنية ، والحضارة والاجتماع ..



وهى كلمات ترددت مِنْ بعدى .. ومن بعد كتابى « المقدمة » الذى احتفلتم به احتفالًا فاق الاهتمام بالكتاب ذاته .. مع أنها لم تستغرق منى كتابة غير أربعة أشهر ، فى حين أخذ منى الكتاب أربع سنوات .. وضعت فيها أسس هذا العلم ...

أنتم تعلمون عن يقين أُننى ولدتُ فى تونس الخضراء فى أول رمضان عام ٧٣٢ هـ (الموافق ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) ، ويرجع أصلى إلى « حضرموت » باليمن ، ويقال إنى حفيد للشاعر عمرو بن مَعْدى كرب . وهاجر أهلى من الأندلس إلى تونس . زَهِدَ أبى فى السياسة ، وأقبل على العلم ، وكان أستاذى الأول ، وعلمنى كيف أحب الدرس وأقبل عليه .. وقد راح أبى ضحية الطاعون الذى اجتاح أرض المغرب ، وقد عشت فيه سنوات



طوالًا قبل أن أمضى إلى مصر عام ٧٨٤ هـ ، وعمرى نحو خمسين عاماً ، لأَبْقَى فيها ، إلى أن انقضى أجلى عام ٨٠٨ هـ ، بعد أن قمت بوضع كتابى الذى تحتفلون به ، وتقدرونه كل التقدير ، وبخاصة « المقدمة » ، وما كنت أتصور أن يكون لها كل هذا الصدى ، بل كل هذا الدَّوِىِّ ، إذ علمت أنها قد تُرجمت إلى عشرات اللغات ، مما جعل الملايين على سطح هذه الكرة يقرءونها باهتمام وشغف ، ولعل السر فى ذلك أنها حَوَتِ الكثير ، وتضمنت الجديد ، وبالذات فى مجال العمران والمدنية ، وفى ميدان الحضارة والاجتماع .. ولا رغبة لى فى أن أطيل فى الكلام عنها ، خاصة أنكم درستموها وكتبتم عنها مايزيد على حجمها نفسه ، وأصبحت « مقدمة ابن خلدون » واحدة من أشهر الكتب العربية الإسلامية ، إن لم تكن أشهرها على مستوى العالم .. وليس أَدَل على أهميتها من هذا اللقاء الذى يتم بيننا .



لقد علمتُ أنهم فى عام ١٩٣٢ احتفلوا فى مصر بمرور ستمائه عام على مولدى .. وفى عام ١٩٨٢ قد جددوا هذا الاحتفال ، بمناسبة مرور ٦٥٠ عاماً على مولدى .. أى تكريم هذا ؟! وأى حفاوة هذه ؟ شكرًا لكم أحفادى – فى مصر ، وفى شتى أنحاء الوطن العربى – على هذا الاهتمام بجدكم الذى لم يكن خليفة ولا حاكمًا ، ولم يكن سلطانًا ولا قائدًا ، ولكنه كان مجرد رجل أمسك بالقلم يخط به على الورق ، وإذا بكم تدركون خطورة هذا العمل ، وتعرفون أهمية هذا العلم .. وإذا بجامعات وكليات ومعاهد ومؤسسات تحمل اسمى ، أو اسم هذا العِلْم الذى تقولون إنى أتيتُ به .. والواقع أن ذلك لم يقتصر على أهلى من العرب والمسلمين ، بل تخطاهم إلى شتى أجناس الأرض ، وما لقائى بكم هنا اليوم إلا تأكيد لذلك » .



دوت القاعة بالتصفيق ، وارتفعت الأصوات من كل جانب تطلب من ابن خلدون المزيد .. طَلَبَ هذا علماءُ الاجتماع ، والمؤرخون ، والفلاسفة ، والسياسيون ، والاقتصاديون ، بل اكتشف البعض أن بعض علماء الرياضيات والعلوم الطبيعية والتكنولوجيا كانوا موجودين يشهدون هذا اللقاء .. إذن ليس علماء الإنسانيات ، والأدباء ، والكُتَّاب فحسب هم الذين يلتقون به ويقيمون من أجله هذا الاحتفال ، وكل منهم أخذ عنه شيئًا ، لكن مفاجأة هؤلاء كانت رائعة ، خاصة حين بدأت كل جماعة



تطرح أسئلتها على العالم الجليل ، وكان يحيلهم إلى الكتب الكثيرة الصادرة عنه .. إنها بالعشرات .. بل بالمئات .. وهناك معاصرون له ترجموا لحياته ، منهم السخاوى .. وابن تغرى بردى .. وابن الخطيب .. وفى العصر الحديث ترجم له وكتب عنه عرب وغربيون .. وقد اشتهر منهم الدكتور طه حسين ، وفون كريمر ، وروزنتال ، وأورد محمد عبد الله عنان قائمة بما كُتب عنه تزيد على الخمسين كتابًا ، قبل عام ١٩٥٢ .. وبعدها ظهر ماهو أكثر منها من تآليف ساطع الحصرى ، والدكتور على عبد الواحد وافى ، والدكتور مصطفى الشكعة ، و .. و ...



ووقف أستاذ للرياضيات يطرح على ابن خلدون سؤالًا حول اهتمامه الكبير بعلم الحساب .. وكان رائعًا أن يربط ابن خلدون بين علم الحساب والأخلاق والسلوك .. قال :

« من أحسن التعلم الابتداء بالقواعد الحسابية ..
لأنها معارف مُتَّضِحَة (واضحة) وبراهين منتظمة (منظمة) .
فينشأ عنها فى الغالب عقل مضىء
دُرِّبَ على الصواب ..
وقد يقال : من أخذ نفسه بتعلم الحساب
أول أمره ، يغلب عليه الصدق ،



لِمَا فى الحساب من صحة المبانى ، ومناقشة النفس ،
فيصير ذلك خُلُقاً ،
ويتعود الصدق ،
ويلازمه مذهباً » .
لقد امتد اللقاء إلى قرب الفجر ، وقام الرجل لصَلاتِه .

وانفض الاجتماع ، وغادر الحاضرون قاعات المكتبة الكبيرة ، ومن جديد ساد الهدوء ، وعندما قَدِمَ الرواد فى الصباح كالمعتاد ، لم يتصور واحد منهم أنَّ مثل هذا اللقاء وهذا الاجتماع قد تم .

الحقيقة أنه لم يحدث إلَّا فى رأس مؤلف هذا الكتاب .

